موقف الأزهر من حملة فريزر على مصر

فـي سـنة ١٨٠٧ أبحرت حملة بريطانيـة من صقلية غازيـة إلى مصر. وكانت التعليمات المعطاة لقائد الحملة الاقتصار على احتلال الأسـكندرية، كوسـيلة للضغط على الدولة العثمانية لتحجيم علاقتها بفرنسا. ووجه القائد فريزر إعلاناً إلى حاكم الإسكندرية وسكانها، يقول فيه «إن البريطان لم يأتوا لاحتلال مصر، وإنما لمنع الفرنسيين من احتلالها، ولحماية بعض الطوائف التـي ترغـب فى علاقـات طيبة مع بريطانيـا. ولهذا فإنهم لـن يتجاوزوا احتلال ميناء الإسـكندرية وقلاعهـا ومدينتها»؛ وسـلمها جميعاً لهم بدون مقاومة حاكمها أمين أغا لقاء رشـوة، غلفتها شروط هزيلة. وكان هذا النجاح السريع إلى اعتماد الإسكندرية فى تموينها على رشيد دافعاً لقنصل بريطانيا إلى أن يطلب إلى فريزر مد حملته إلى رشـيد، وإلا عرض حملته وسـكان الإسكندرية لخطر المجاعة.

كانت القوة العسـكرية التى اتجهت إلى رشـيد تتألف من ألفى جندى من أصل خمسـة آلاف هـم قوام الحملة كلها، وكانت حامية رشـيد نحو خمسـمائة جندى مسـلحين تسـليحاً رديئاً، وفى حال معنويـة متدنية، لكن حاكم رشـيد على بك السـلانكللى قرر المقاومة. ولما انتهت القوة إلى مرتفعات أبى منصور لم تلق أدنى إشارة إلى احتمال المقاومة، لكن بمجرد دخولها إلى المدينة أعطى على بك إشـارة البدء لإطلاق النيران، فتسـاقط البريطان صرعى فى الشوارع. وفيهم قائد القوة الجنرال ووكوب. وبلغ عدد القتلى نحو مائتين، والجرحى مائة وخمسـين والأسـرى مائة. أما خسائر

الحامية العثمانية فبلغت أربعين قتيلاً وحوالى مائة جريح. وأرسل فريزر تقريره إلى وزير الحربية الإنجليزى، يقترح فيه أن تجلو انجلترا عن مصر، وينحى باللائمة على قنصل بريطانيا ميسيت الذى يقول إن العالم سيعتريه الدهشة حين ينتهى إليه أن مدينة مثل رشيد قد استعصت على جيش أوروبى حديث!

أما علماء الأزهر وفى الطليعة منهم السيد عمر مكرم، فتدخلوا بصورة فعالة فى اليوم الذى وصلت فيه إلى القاهرة الشحنة الأولى من رءوس القتلى فى معركة رشيد. وكان ذلك فى ٥ أبريل ١٨٠٧. وتولى عمر مكرم قيادة المقاومة الشعبية، فطلب إلى الجماهير التأهب لقتال الإنجليز، وأمر بتعطيل الدراسة فى الأزهر حتى يتفرغ علماؤه وطلابه لصد الغزاة.

أما كاشف دمنهور فكان متخاذلاً هو وعساكره، بل إنه حال بين سكان دمنهور وبين استخدام أسلحة الحامية وذخيرتها فى الدفاع عن المدينة!!

أما الجنود العثمانيون فقد استولى عليهم الفزع، وانتوى أكثرهم الفرار إلى الشام، وقنع بعضهم بالهروب إلى دمنهور، وكان لهم فيها تصرفات مخزية!

أما كبار العثمانيين فقد قرروا إبلاغ محمد على بأنباء الحملة، وأن عليه أن يرجع هو وعساكره إلى القاهرة؛ فهذا موقف أخطر كثيراً من تمرد المماليك القبالى، أما هو فقد «داخله وهم كبير، وارتبك فى أمره، وانحلت عزائمه» كما يقول الجبرتى، وانتوى أن يتجه إلى الشام، فيكون غيابه عن القاهرة عذراً له عند الباب العالى من عدم محاربة الإنجليز؛ لكنه عدل عن رأيه، وبعث إلى العثمانيين بعزمه على الرجوع، وأن العساكر يطالبونه بالعلائف، ويأمرهم بتحصيلها وتسليمها له، وأن يتجهزوا لمحاربة

الإنجليـز. وكان بالقاهرة قـوة محدودة من الجنود الأرنـاؤود، فعاثوا فيها فساداً واستباحوا أموال المصريين، وجاسوا خلال الديار والأسواق يغتصبون كل ما يصادفهم.

وعقـد اجتماع فى بيت القاضى العثمانى حضره جمع من كبار العلماء فى مقدمتهم الشيخان عمر مكرم وعبد الله الشرقاوى، وكان محمد على قد ألغى قرار تحديد إقامته، وحضره بعض الضباط الألبان، وطلب عمر مكرم أن يكف الجنود العثمانيون عن أعمال السـلب والنهـب، وأن يلتفتوا إلى عدو الدين وناقشوا تحصين القاهرة وحفر خندق يقى القاهرة عادية الانجليز.

ويقول الجبرتى إن قنصل فرنسـا دروفتى هو الذى أشار بالخندق. وذهب معهـم لترتيب الحفر وأرسـل حاكم رشـيد على بك وأحمد بـك الخازندار يطلبان النجدة من القاهرة، فقد رجح عندهما أن الإنجليز سـيعاودون الكرة. فبادر المشايخ بإرسال عدة من المقاتلين، ثم كتبوا إلى سائر البلدان والعربان بالبحيرة يدعونهم للجهاد. وحدث ما توقعاه، وبعث نقيب الأشراف برشيد إلـى عمر مكرم يخبـره بعود الإنجليـز، ويطلب الإمداد، فقرأ السـيد عمر مكرم الخطاب على الناس، وحثهم على الجهاد، فامتثلوا وتزودوا بالسلاح. وركب عمر مكرم إلى نائب محمد على. وكان مازال بالصعيد يطارد المماليك القبالى!! – يسـتأذنه فى السـفر إلى رشـيد، فرفض وقـال: «حتى يأتى أفندينا ويرى رأيه فى ذلك» . ووردت رسـالة أخرى من حاكم رشيد وأحمد الخازنـدار بـأن الإنجليز ملكوا أيضاً كوم الأفراح وأبا منصور، ويسـتعجلون المدد. وعاد محمد على يوم ١١ أبريل وذهب إليه عمر مكرم وكبار المشـايخ ورجال الحكومة للسـلام عليه، واسـتئذانه فى السفر للجهاد، لكن صدمهم بقولـة مهينة: «ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المسـاعدة بالمال

لعلائف العسكر!!» .. وبعث إلى السيد عمر مكرم بعد أن انفض المجلس يلزمه بتحصيل خمسة آلاف جنيه لتغطية نفقات الجند الذين يعتزم إرسالهم إلى رشيد!!

وبعث حسن كريت من رشيد برسالة فى ١١ أبريل تلقاها عمر مكرم والمشايخ فى ١٤ أبريل يخبرهم بأن الإنجليز متحلقون حول الثغر ويضربونه بالمدافع، وأبلغ السيد عمر محمد على بمضمون الرسالة، فأمر بإرسال جند كثير إلى رشيد، لكنهم لم يجاوزوا ضواحى القاهرة، وعادوا إليها، وارتكب بعضهم قبل عودتهم أشد الآثام والفواحش، فقد أكلوا مزروعات الفلاحين، وخطفوا مواشيهم، واعتدوا على نسائهم!! وكان هؤلاء الجنود من جنود محمد على بالمنيا. واضطر للبقاء بالقاهرة خوفاً من اتساع فضائحهم، وهم يطالبون برواتبهم المتأخرة! ثم اعتمد على قوات أخرى أحسن نظاماً وتسليحاً. وبذل محمد على مع قنصل فرنسا دروفتى جهوداً وافرة لتحصين القاهرة، ومعهما جماهير الشعب التى استنفرها السيد عمر مكرم وعلماء الأزهر. وفى نفس الوقت طلب محمد على إلى السيد عمر وعلماء الأزهر التوسط لدى الأمراء المماليك يستحثونهم على الإسراع إلى القاهرة لإبرام الصلح النهائى، لكن هؤلاء عمدوا إلى التسويف حتى ينجلى الموقف!

وكان لزاماً على الإنجليز معاودة الكرة للاستيلاء على رشيد، حفاظاً على سمعتهم الحربية، وحتى لا ينصرف عنهم المماليك ويتبدد أملهم فى طرد محمد على، وأعد فريزر قوة أخرى تحركت من الإسكندرية بقيادة الجنرال وليم ستيوارت، فاحتلت أولاً قرية الحماد ثم مرتفعات أبى منصور وقصفت «رشيد» بالمدافع اثنى عشر يوماً، وانتظر ستيوارت بفرسان المماليك، لكنهم ما لبثوا يتربصون! وجاءت حملة محمد على وقوامها ١٥٠٠ فارس، ٥٠٠

رجـل، كما جاءت نجدات المتطوعين من دمنهور وما حولها. ووقع الصدام فى ٢٥ أبريل واستمر يومين ودارت الدائرة على الإنجليز، وبلغت خسائرهم ٤١٦ قتيلاً، ٤٠٠ أسـير. وتراجع القائد بقواته إلى أبى قير واسـتقل السفن إلـى الإسـكندرية. ولا مرية أن هذه الروح العالية التـى قاتل بها المصريون مردهـا إلى قولة عمر مكرم: «إن هـذه الحرب حرب دينية ضد أعداء الدين والملـة...». لكن العثمانيين لم يعترفوا للمصريين بالفضل، فبعث السـلطان بهدايا لمحمد على ولكبار العسكر، ونياشين للعسكر، أما عمر مكرم والعلماء فلم يكن لهم نصيب منها!!

ومن أسـف أنه فى أعقاب معركة الحماد انتشـر الجنود الأرناؤود والدلاة فى البلدة واسـتباحوا أموالها ونساءها وماشـيتها، زاعمين أنها قد أصبحت دار حـرب!!! ثم انتقلوا إلى رشـيد وفرضوا الإتاوات على أهلها، وصادروا محصول الأرز، وخرج أهل رشـيد وتركوا البلدة لهم!! وكتبوا إلى عمر مكرم يطلبون إليه السعى لإيقاف السلب والنهب!

وأراد محمـد على الزحف إلى الإسـكندرية لاسـتخلاصها من الإنجليز، لكنـه أراد الصلح أولاً مع المماليك مخافـة أن يزحفوا إلى القاهرة!! وكانوا وصلوا إلى بنى سـويف. وطلب محمد على إلى قنصل فرنسـا العام التدخل رسـمياً، لكن المماليك طلبوا وفداً يتكون من الشـيوخ: عبد الله الشـرقاوى ومحمد الأمير وعمر مكرم، فبعث إليهم محمد على بوفد من المشايخ: سليمان الفيومى، وإبراهيم السجينى، محمد الدواخلى، وأعطاهم صلاحيات كاملة، لكن الصلح لم يتم لاختلاف المماليك فيما بينهم وتحاسدهم وكراهتهم الزائدة لمحمد على، ولشروط تمسكوا بها.

وعندما انتوى محمد على التحرك إلى الإسكندرية فرض على التجار عشرة آلاف جنيه، على سبيل الاقتراض!. كما أمر بتزويد الحملة بمطالبها من دواب وقرب الماء والمواد التموينية وما إليها، وكانت وسائله بالغة التعسف فى تحصيل ما أراد، كما فرض الضرائب العينية، واقتحم جنوده الأرناؤود والدلاة البيوت وانتهكوا الحرمات وأخرجوا أهلها. وتشفع عمر مكرم فى الناس عند الباشا بعد ما التجأوا إليه، فرفع عنهم غراماتهم، وكتب لهم أماناً.

وقدم وفد بريطانى إلى محمد على يوم ١٠ أغسطس ووقع اتفاق الجلاء بالقرب من دمنهور، وكان أساس الاتفاق جلاء الإنجليز مقابل إطلاق سراح الأسرى البريطان، مع شروط. أُخر وتم جلاء آخر جندى بريطانى عن الإسكندرية فى ١٩ سبتمبر ١٨٠٧.

***